نواف ابو الهيجاء

الباب السابع

مقدمـــة :

جلس الشاطر محمد في القصر الكبير مفكرا . كل شيء هنـــا متيسر ومريح . شيء واحد كان يثقل عليه . لماذا قال له العمـلاق : الابواب الستة هذه يمكن لك ان تفتحها . اما الباب السابع فمحظور عليكفتحه . لماذا الباب السابع لا ؟ ماذا تضم الغرف التسع المذكورة ؟ نهض من مكانه . كان يحلم بعصير الزهور الذي سيشفي الاميـرة الحسناء التي احبها ، والتي من اجلها خاض كل الصعاب واجتـاز العقبات . ها هو اليوم التقى بالعملاق الضخم الذي سيوصله الـى الزهور . قالوا له لا يمكن ان تصل الزهور تلك الا بعد مقابلة العملاق والمكوث عنده ثلاث ليال . كثيرون سبقوه الى المحاولة لكن احدا منهم لم يعد . لقد لاقوا حتفهم . وصل الى البـاب الاول . لم يتردد . فتحه . هاله ما رأى . غرفة متسعة جدا ، فيها مائدة طويلة صفـت عليها عشرات من الاواني المملوءة باصناف الفواكه واطايب الطعـام ، والشراب . كان الطعام ساخنا . بخاره ما زال يتطاير من الصحون . عجب . من اين جاء هذا الطعام ؟ الان ؟ تقدم من المائدة تناول تفاحة. حين تذوقها لم يصدق طعمها . انها أحلى من الشهد . لكنـه كـان يفكر في الغرف الاخرى . هكذا انسل من الغرفة الاولى واغلقها ثم اتجه الى الباب الثاني . فتحه . وقعت عيناه على غرفة كبيرة تعج باحـلى انواع الالبسة . الصوف والحرير ، الوان لم يرها في الحـلم . تحسس بيده الحرير الناعم . ارتعشت كفه وهي تنزلق علىالقماش . خرج من الثانية الى الثالثة . ما ان فتح الباب حتى شهق . فيوسط الغرفة كانت نافورة ماء ، لا ليست نافورة ماء . لم يكن هذا الـذي يتدفق ماء . لونه ذهبي ، كأنه يحمل الشمس مذابة . اقترب منده شا. مد احد أصابعه وغمسه في البركة . حين اخرجه كان لونه ذهبيا مشعا. حاول أن يمسح الماء المذهب لكنه لم يـــذهب . يا الهي ، من أين للعملاق كل هذا ؟ خرج من الغرفة الثالثة وفتح باب الغرفة الرابعة . لم تكن غرفة . كانت حديقة كبيرة غناء . سمع فيها تغريـد الطيور ، وعبات روائح الزهور خياشيمه . استنشق الهواء . كان العبير أخاذا ساحرا . كحل عينيه بمنظر الورد الذي كان يوشي أذيال الحديقة ، وسكن قسمه الاكبر قلبها المتسع . اتاه صـــوت الشحرور ، وارهف اذنيه ليصغي الى تغريد الحسون ... ولم يصدق ما رأته عيناه مرة اخرى . كر الى الغرفة الخامسة وفتح بابها . ما ان سقط الضيـــاء على الغرفة حتى انبهرت عيناه من ضوء ساطع شع في وسط الغرفة . أدرك انه أمام منجم من الماس . حين أغلق الباب بهت الضوء ، ثم رأى كالحالم كومة هائلة من قطع مثل الفحم . حين غادر الغرفة شعر بدوار. ما هذا ؟ ما الذي يجري هنا ؟ لم كل هذا ؟ من يأتي الى هذا المكـان ويرى كل هذا فانه لن يفكر في مغادرته قط . لنفتح الباب السادس . فتحه فوقعت عيناه على ثلاثة جياد بيضاء بلون القطن . صهلت حيـن رأته . هذه الجياد الاصيلة أمر بعث البهجة الى قلبه . الماء والخضراء والجياد والطعام والملبس . ماذا بقي ؟ ترى ماذا تضم الغرفة السابعة ؟ ماذا تضم يا شاطر محمد ؟ العمـــلاق قال اياك والسابعة . ايـــاك والسابعة . ماذا يخفي في السابعة ؟ تقدم من الباب بحذر . قرب اذنه واصغى . لم يسمع شيئا . مد انفه ناحية الباب . لم يشم الا رائحـة الخشب . قرب يده من الاكرة . ارتعشت قليلا قبل ان تلمسهـــا . كانت الاكرة باردة كالموت . قبض عليها بهدوء غريب . أدارها . خيل اليه انه سمع صوتا غريبا . أرهف السمع لكنه لم يسمع شيئـا . أدار الاكرة مرة اخرى ، ثم دفع الباب بكل قوة . روائح الموت انهالت عليه تفمره ما ان أصبح الباب مشرعا . واندفع خفاش ضخم الحجـم يمرق من تحت ذراعه الايمن فأجفل . كان الظلام يغمر المكان ، وصوت أنين خافت يأتيه من احدى الزوايا . لم يتبين المكان ومصدر الصوت بادىء ذي بدء . شعر بأن قدميه تحاولان ان تتراجعا ، وهو الـــذي ما عرف الخذلان يوما ، فاقدم . فماذا رأى ؟)

١ ــ أهزوجة ناوند العاق :

راحتاه تشققتا وهو ينقل الطين . كـان البناء ضخمـا . احـد التجار الكبار في البلد يريد أن يبني عمارة بخمسة طوابق . محمـد العبد الله كان عاطلا عن العمل . صرخ ابوه في وجهه :

ــ هناك من يريد بناء عمارة جديدة . انهم بحاجة الى عمال ، من زمن قلت لك انت لا تصلح الا « للطورية » ، وها قد جاء اليوم الذي تحمل فيه الطورية وتشتغل . تفضل . يلعن الساعة التي ولدت فيها. قال شهادة ثانوية قال . كان يجب ان تعمل صباغ احذية وتعلـــق الشهادة على الصندوق .

اتجه محمد العبد الله صبيحة اليوم التالي الى المكان . لم يجد صعوبة في العمل . حمل « الطورية » للمرة الاولى في حياته . ذاق مرارة الاجهاد . عندما عاد الى المخيم مساء ذلك اليوم ، وجد نفسه يخلد للنوم دونما عناء . ايقظتـــه أمه مبكرا ، وكان الاجهاد ما زال مسيطرا عليه . يداه ، ذراعاه ، قدماه ، رجلاه ، وركز الم ضـاغط

في أسفل ظهره . حين خرج الى العمل كانت الشمس حادة . هز رأسه وغمغم :

ـ ساعدنا الله هذا اليوم .

راحتاه تشققتا . تجمع العمال في ظل السور الكبير ظهر ذلك اليوم . فتح كل منهم « زوادته » . فضّ ورقة الجريدة التي صرت أمه بها طعام الغداء . وجد فيها بيضتين مسلوقتين ، ورأس طماطم ، ورغيفين ، وخيارتين ، وقليلا من ملح الطعام . كان مسعود الى جانبه، نظر اليه ثم قال :

ـ أما سمعت الاخبار يا محمد ؟

ـ لا والله ، كنت تعبا أمس .

ـ يقولون ان عبد الناصر اصر على سحب قوات الطوارىء والامور خطيرة .

قال وهو يمضغ أول لقمة :

ـ يا شيخ . كله كلام .

ـ اذا قامت الحرب ؟

توقف محمد العبد الله عن تناول الطعام . صرخ في رأسه صوت : صحيح والله . ماذا لو نشبت الحرب ؟ ماذا لو هجم اليهود علينا ؟

في ذلك المساء التقى بعلي السلطي وعدنان حيفاوي . تحدث الثلاثة بحدة عن احتمالات الحرب واستمعوا الى اذاعة صوت العرب. اعتصر الالم محمد العبد الله وهو يقول بصوت خافت :

ـ سنموت مثل الجرذان ، دون ان نستطيع الدفاع عن انفسنا وبيوتنا ..

وعندما عاد الى البيت أعلن مخاوفه تلك على مسامع أبيه واربعة من ضيوفه ، وكان بينهم عبد الرحمن السواعدة قريب رئيس مخفر المخيم . صرخ أبوه في وجهه وهو يتجه بعينيه الى السواعدة :

ـ ان قامت الحرب فالجيش هنا قادر على حمايتنا ودحر اسرائيل .

لكن محمد اصر على مخاوفه واتجه الى السواعدة يحدثه بحماس عن ضرورة توزيع السلاح على الناس . حين خرج الضيوف من البيت استوى أبوه واقفا وأخذ يزبد ويرعد :

ـ انت لست قد الحكومة . السواعدة هذا يقولون انه مباحث . كيف تتحدث أمامه عن توزيع السلاح . ماذا لو الصق بك تهمة انك... انك شيوعي غدا ؟ يا أخي ابحث عن خبزتك . السياسة للناس الذين ظهورهم مسنودة . نحن (نور) . أقل هفوة ويذهب الواحد منا كشربة ماء . الله يسامحك .

في صبيحة اليوم التالي اتجه محمد العبد الله الى العمل . ما ان وصل حتى التقى رجلين كانا يقفان مع ثلاثة من العمال وهما يسألان عنه . قال :

ـ خير ان شاء الله .

ـ تفضل معنا الى المخفر .

في المخفر كان الرئيس يروح ويجيء وهو يضع يديه خلف ظهره . ما ان ادخلا عليه محمد العبد الله حتى زرع عينيه الفاضبتين فيه وأخذ يصرخ بأعلى صوته :

والله عال . هذا ما كان ينقص المملكة . واحد مثلك يموت جوعا كل يوم ويطالب بالسلاح . خذوه الى بيت خالته . قبل ان يجلس في البيت (آجروا) فيه قليلا .

٢ ـ الولد يحمل البارودة :

ـ لولا العيب لقلنا الحمد لله الذي صار الاحتلال حتى يطلقوا سراحك يا محمد .

هكذا استقبله ابوه يوم افرجوا عنه . كان حزيران قاتلا ذلك العام . اضطر ابوه الى مغادرة الضفة الغربية مع من غادرها من الناس . وحين عبروا النهر للمرة الاولى رأى محمد الجسر المهشم من قذيفة طائرة . كان الناس يتراكضون فوق الجسر وهو محطم . ماء النهر ضحل ، والاثقال تحني ظهور الشيوخ والنساء . في «البقعة» استقرت العائلة مع آلاف غيرها . مرة اخرى عاد الى الخيمة .

جلس قدام الخيمة ذات مساء وأخذ يفكر : ما العمل ؟ الشهادة الثانوية لا تعني شيئا . بدل الصيبة الواحدة صرنا باثنتين . والعائلة كلها من النساء والاطفال . علب السردين والبطانيات والخيمة الكبيرة. غدا يأتي الشتاء . كم يكره الشتاء . ابوه كان يقول :

ـ في البلاد كنا ندعو الله ان تمطر . المطر خير الا على المخيمات. استغفر الله العظيم . ماذا لو ان المطر يبتعد عن المخيمات .

نزل الى عمان مرات عديدة ولكنه في النهاية وجد عملا . مكتبة احد اقاربه كانت في حاجة الى من يوزع الصحف على المشتركين وينظف المكتبة ويعتني بها . هكذا اخذ يعمل . تردد الزبائن على المكتبة . لفت نظره احد الشباب . اسمه رشاد . كان يتردد كثيرا على المكتبة ، وكان ودودا ومحدثا لبقا . تغيب عن المكتبة على غير عادته . مضى شهران . كاد محمد العبد الله ينساه لولا انه فوجيء به صباح يوم يصافحه .

ـ أين انت يا أخي ؟

ـ في هذه الدنيا يا محمد ..

ـ الاخبار ممتازة . الفدائيون تحركوا من جديد .

قال رشاد :

ـ انت ما رأيك ؟

ـ بماذا ؟

ـ ان تعمل فدائيا .

ـ المكتبة علمتني الكثير . البندقية وحدها لا تكفي . يجب ان يكون وراءها دماغ .

ضحك رشاد بود ووضع يديه على كتف محمد :

ـ هذا رائع . اتفقنا اذن .

٣ ـ الولد يدافع عن الخيمة :

كان محمد العبد الله يرتدي الموه ويحمل (الكلاشن) ، وكان أيلول يقبل متسارعا على عمان . وصل لتوه الى القاعدة في الاغوار حين اخبره الرفيق (ابو رعد) انه مطلوب فورا الى عمان . استقل السيارة مع ستة رفاق اخرين . كان الغبار ما زال عالقا على ملابسهم. اتجه اليه الرفيق (همام) بالسؤال :

ـ رفيق « عدي » ـ وهو اسم محمد الحركي ـ هل علمت لماذا طلبتنا القيادة ؟

هز رأسه نفيا ، ثم قال :

ـ سنعرف حالا . الجو مشحون منذ شباط كما تعرف . السلطة تحضر لجولة كبيرة معنا .

كانت يده تقبض على اخمص البندقية بشدة . مد اليها يده الاخرى كأنه يحتضنها . كانت السيارة تمر من امام مخيم البقعة . ود لو يستطيع ان يتوقف قليلا ليرى أهله . منذ شهر لم يرهم . كيف هم ؟ للمرة الاولى هزه الشوق الى ابيه ، الى كلماته ، حتى ما كان منها حادا وجارحا . تشوق الى قبلة امه التي كانت تطبعها على وجنته وهي تبتهل : « الله يحميك ويحمي كل الشباب » .

لم يكن قبول ابيه لكونه فدائيا سهلا . لكنه استسلم امام الامر الواقع ، وازدادت قناعته حين ذكرته زوجه بأيام السبعة واربعين حين كان هو يقاتل . حين وصلت السيارة الى مقر القيادة ترجلوا منها ودخلوا مسرعين . لم يكن الجو في عمان طبيعيا . الفدائيون منتشرون في كل مكان . شيء خطير تنبيء عنه الوجوه والنظرات والحركات .

ـ استغفار .

قالها عضو القيادة موجها حديثه الى محمد ورفاقه . تبسم استئناف :

ـ انت والمجموعة تذهبون الى (الاشرفيه) . ستصلكم التعليمات تباعا . تحاشوا التحرش بالجيش .

ما ان وصلوا الاشرفية حتى بدأ اطلاق النار في اماكن متفرقة من عمان . بدأ السواد يزحف على المخيمات والبيوت والشوارع . اتخذت المجموعة وضعا قتاليا فور وصولها (الاشرفية) . كانت زغاريد النساء تمتزج بروائح البارود وباصوات الانفجارات والعويل و ... الدخان .

٤ ـ الابواب :

كان الجو مشحونا هذه المرة . محمد العبد الله في سورة غضب عارمة . تحدث الرفاق كلهم وكان صدره يمتلىء بالغضب . لم تجتمع الكلمات لتخرج دفعة واحدة مثل الرصاصة :

ـ اسمعوا ايها الرفاق . ممنوع الدخول من الهضبة ، فهمنا. ممنوع الدخول من الاغوار ، فهمنا . ممنوع الدخول من سيناء ، فهمنا . الآن ممنوع الدخول من جنوب لبنان . اقول جدلا فهمنا . شيء واحد لم اعد افهمه .

اتجه بعينيه للمرة الاولى الى رشاد الذي كان واجما طوال الجلسة وصامتا :

ـ شيء واحد يا رفيق .. يا رشاد . لماذا حملنا السلاح وتركنا البيوت ؟ لماذا الشهداء اذن ؟ لماذا كل التضحيات التي قدمناها ، اكل هذا كان من اجل (الحقوق المشروعة) ؟ اين الشعارات الاولى للثورة ؟ التحرير الكامل للتراب الفلسطيني . يا عيني . تحسبون الناس فقدت الذاكرة . انا لم افقد الذاكرة بعد ولله الحمد . تقولون تكتيك واستراتيجية . نحن نمسح ما خطه غيرنا بالدم بدعاوى التكتيك والستراتيجية . ثقوا انني افضل الموت على ان امد يدي الى (الاخ كيسنجر) . وليكن معلوما لديكم انني سأقطع اليد التي ستمتد الى الاخ المذكور من اجل ان تستسلم .

قال هذا باعلى صوته ثم انسحب من المكان . هرع خلفه رشاد وثلاثة رفاق آخرين . قبل ساعات كانت الطائرات الاسرائيلية تحوم في سماء بعض القرى الجنوبية . نظر الى السماء . سحب بعيده تقترب ... تمتزج بعضها ببعض . تتجمع تدنو من الجنوب . احس بالاقدام تقترب من خلفه . نظر . كان رشاد هادئا . وكان الرفاق الثلاثة يقفون صامتين . اغرورقت عيناه بالدمع فجاة . تمتم بهمسات تحرقانه . اشاح ببصره عنهم واخذ يرمي السحب بعينين زائغتين . سمع صوت رشاد الهادىء القريب من قلبه :

ـ رفيق « عدي » . كنت الرفيق عدي وستبقى الرفيق عدي . ظاهرة صحية ان تتواجد افكار وآراء مختلفة في تنظيم ثوري . كل الثورات في العالم مرت بهذه التجربة . انا معك في كل ما قلت . والسلاح الذي حملناه لن نلقيه قبل ان تتحقق الشعارات والامال التي دعتنا الى حمله .

آنذاك التفت محمد اليه متسائلا :

ـ اذن ؟

ـ ابق في الصفوف وناضل . كن ايجابيا .

ـ وانت ؟

ـ انا معك . والرفاق سميح وناظم ونايف ، رعد وهمسود وهمام ... كلنا معك .

نظر الى الوجوه التي امامه . الشعر الكثيف الاسود ، والبرق في العيون . اتجه الى السماء . السحب تتكاثف ، واللون يصبح قاتما كلما اندمجت سحابة باخرى . رأى نفسه في المخفر وهم يضربونه :

ـ تريد السلاح يا ... ابن ال ...

خاتمة :

(كانت امرأة عارية معلقة من شعرها بسقف الغرفة في احدى الزوايا . أغمض عينيه لكنه سمع صوتها :

ـ ما الذي جاء بك الى هنا ؟ أانت الاخر ضحية من ضحايا الاميرة ؟

نظر الى الارض وتساءل :

ـ من أنت ؟

سمع صوتها الضعيف :

ـ انا الاميرة .

تملكه الفزع مما سمع :

ـ ماذا تقولين ؟ انت الاميرة .

ـ اجل يا شاطر محمد . انا الاميرة . والتي شاهدتها في القصر شبيهة لي ارسلها العملاق هناك . انها شقيقة العملاق . العملاق يتغذى على لحوم الناس . انا الاميرة ولست مريضة . المرض حجة من اجل ان ياتي الفرسان الى هنا ... هكذا يقتلهم ويتغذى على دمائهم واجسادهم .

ـ غير معقول . غير معقول .

ـ انظر الى وجهي اذن . انظر .

رفع عينيه بحذر وخوف . كان كمن يحلم . نظر اليها فهاله ما اكتشف . ضرب على صدره بيديه ، وهرع نحوها .

ـ ايتها الحبيبة .

ـ قبل ان تفك وثاقي يجب ان تقتل العملاق . والعملاق لا يقتل الا شيء واحد .

تساءل في لهفة :

ـ ما هو ؟

قالت متقطعة الانفاس متعبة :

ـ في جدار الغرفة الاولى باب سري يوصل الى سيف كبير . احضره واضربه مرة واحدة . مرة واحدة يا شاطر محمد .

ـ ولماذا مرة واحدة فقط ؟

ـ لانك ان ضربته ثانية يعيش من جديد . يبرأ من الموت .

ـ لافك وثاقك اولا .

ـ ما ان تفك وثاقي حتى يكون هنا ليقتلك كما فعل بالاخرين) .

الكويت